السقوط والعطش

قصة

بقلم محمود حسن العزب

ارتمى جسداهما فوق التل ، تقلبا اكثر من مرة في سخونة الرمل . اغمض «اسماعيل» عينيه ، وترك الشمس تلعق في جسده. انتظر ان يكف عن النفس في اية لحظة . احس بخدر غريب يتنفل في جسده . حرك اصبعه في الرمل . رسم مستطيلا يلائم حجم جسده . برر الامر لنفسه : ربما حاجة دفينة تؤثر احتواء جثته في مساحة مستقلة . تمدد بتراخ . طمست قدمه جانبا من المستطيل . خيل اليه وهو يفرد قدمه ، ان العالم ضيق ، لا يكاد تنبسط حدوده ابعد من جسمه . فضل ان يكوم اطرافه . ومد بصره بعيدا يشهد احتكاك المساحات الرملية بشريط الأفق الملتهب ، وكيف تكتسي هذه المساحات بنار الظهيرة . وقعت عيناه قرب التل على عربة معطلة . ارتفعت جفونه ، وهز كتف زميله بلهفة . انتابت جسد زميله رعشة لم يتوقعها . ودون ان ينطق بكلمة لف دماغه بيديه ، وتمدد على المنحدر ، تاركا جسده يتدحرج الى السفح . هم «اسماعيل» ان يصيح به محذرا . احتبس صوته في جفاف حلقه . اسرع بغلق فمه هربا من لسعة الصهد . تردد برهة . اغمض عينيه وتدحرج هو الاخر . حين وصل الى اسفل ، تكوم جسده كحزمة قش ، ورفض ان يتحرك . خطر له انه ربما اصيب . فرد جسمه بمشقة . تحسسه يقدر الخسارة . دخلت هبة صهد في عينه كالشرارة . دعك عينه في هياج . لا يحق له ان يستسلم لرقدته . الشمس تتلمظ لجلده ، وتطمع ان تفري لحمه . فكر ان يجرب الزحف على بطنه . لكنه تجاهل الفكرة ، واعلن لزميله يائسا وهو يتمرغ في الرمل الساخن : لن اتحرك بعد الان !

ـ هذه العربة .. لا بد ان بها ماء .!

مـاء !!

كأنها الكلمة الاولى . اختلج جسده برعشة طفلية ، كرضيع يحلم برائحة ثدي امه . تغلب على نقل رأسه المعفر ورفعه . أدار رقبته المتسلخة بحذر ، احتك بها المنديل ، ووخز جروحها . قوس جسده ، وحدق في العربة . هم بالوقوف ، لم تسعفه قواه ، اقترح ان يتجها اليها حبوا ، وتذرع لصاحبه بخطر الوقوف والمشي ، في ساحة مكشوفة للعدو .

عينا زميله مشدودتان نحو العربة ، ونغفلان عن اية عيون اخرى قد ترصد العربة . تمهل «اسماعيل» لحظة ، وأرهف السمع . لا شيء حول العربة سوى الصمت ، وعيون الشمس المتوهجة . هبت نسمة حارة محملة بذرات الرمل . لفحت وجهه ، ولسعت جفونه . أدار وجهه يتجنب مرورها . لمح التل مرتديا غلالة من اللهب ، ترافص بلا ايقاع تحت عينيه . زرر جفونه ، وسحب عينيه عن التل في دهشة. لم يصدق انه تدحرج من فوقه ، لكنه فعلها كمحاولة اخيرة للوصول الى العربة ، الى شيء ما ، كما حدث في كل محاولة سابقة . كان احدهما يتكلم في البداية مشجعا الاخر باسم : محاولة .. اخيرة . ثم تتكرر المحاولات في صمت ، كأنها قدر مفروغ منه في جوف الصحراء . لكن مخيلته تحتفظ بمحاولة من نوع اخر . محاولة هوان اولى ، حدثت بعد وصوله الى جبل (لبنى) بيومين . في الظلام ايقظ (الرقيب) جنود الاحتياط، وأمر بحفر خنادق في ارض رمليه مكشوفة، وبعمق متر ونصف ، وبسعة نصف متر . تحمس «اسماعيل» للعمل ، ونجرأ مستغلا الظلام وقال :

ـ يافندم .. لم نحصل على ماء من ٢٤ ساعة .!

ـ على صاحب الصوت ان يحفر خندقين في وقت واحد !

بعد تلاث ساعات ، انتقل الى حفر الخندق الثاني ، وتولت الرياح في نفس الوقت ردم الخندق الاول . استنجد بطلب شكاير رمل لحماية الخندق . سمعه «الرقيب» . نهره بغلظة ، ودفعه في الخندق ، فسقط على وجهه . هم ان يبطش به «الرقيب» بطريقة اخرى ، لولا ان تعالت اصوات مجاورة تطلب الشكاير ، صرف «الرقيب» المسألة باعلان احضارها في وقت اخر . مسح «اسماعيل» الرمل عن وجهه ، ودعك انفه بقوة ، باغتته الرغبة في البكاء ، فاستجاب لها .

توارت ذكرى سقوطه على وجهه حين استهلكه عمل الطوابير ، استغرقت تدريبات الاحتياط كل حواسه ، وعاش يومه الرابع مع اسلحة جديدة ، مبهورا بالاستماع الى محاضرة عن طرق استعمالها ، لكن المحاضرة طالت في عين الشمس ، واحس ان جلدة رأسه تكاد تنكمش ، وأنه مجهد على غير العادة ، وفي حاجة الى النوم والظل ، لكنه ارغم نفسه على الانتباه والثبات ، فالوقت لا يسمح بالشكوى. لا بد ان يعرف الكثير عن الاسلحة . الكثير مما يحتاج اليه . تم توقف الضابط المحاضر ، ومسح عرقه ، وحدد للشروح التالية صباح الغد .

راح «اسماعيل» في النوم طوال ليلته ، دون ان ينتبه لما طاف به من احلام غامضة ، واستيقظ في الصباح مبكرا ، يخالجه شعور خفي بالقلق ، عله بثقل في رأسه ، ثم نسيه بعد لحظات مع حركة

الاسلحة اللامعة ، وهي تتنقل هنا وهناك . واجتاحته رغبة تقبيل احد هذه الاسلحة ، وداعبته نشوة رقيقة حين بهره منظر الشمس ، وهي تحف برؤوس الجبل ، ثم تزحف عبر المساحات الشاسعة الممتدة حتى «العريش» .

ـ ترى كم المسافة من هنا حتى العريش ؟.

قال زميل قديم :

ـ حوالي ١٥٠ كيلومترا . مساحة كافية لاعداد مقابر الاعداء.. لن نبخل على كل فرد بقبر مستقل .. ما رأيكم في ذلك ؟

اسرع احد الجنود يقول ضاحكا :

ـ معك حق .. لا داعي لان نكدسهم في مساحة ضيقة .. لسنا في عجلة على كل حال .!

ضحك الجميع وهم ينتظمون في الطابور ، وغرق جبل (لبنى) في ضياء الشمس ، واندثرت كل الظلال ، رغم ان الساعة لا تزيد عن العاشرة . ولم يسلم من فضول الشمس سوى خيمة القائد .

افتتح الضابط محاضرته بتمهيد قصير، دوت على اثره طلقات مدفعية ثقيلة . اتجهت الانظار ترصد مصدرها . قدر القدامى من الجنود انها لا تبعد عن موقعهم بأكثر من ٣٠ كيلومترا . انهالت الاستفسارات على المحاضر الشاب . كان حديث التخرج برتبة نقيب ، يهتم بتلوين مقاطع كلماته ، مثلما يهتم بلمس نظارته الانيقة . خلع نظارته ، ومسحها بقطعة قطيفة ، واعلن بهدوء ، ان ذلك ـ بلا ريب ـ ديناميت لتفتيت الصخور .

تنفس الجميع بارتياح ، واستمرت المحاضرة ، حتى توقفت ربع ساعة للراحة .

انفرد «اسماعيل» بنفسه بجوار نبة ، وأخرج من جيبه مصحفا، وصورة فتاة . سرح في الوجه لحظات . فتح المصحف ، وأطل عفوا في الصفحة وهم ان يقرأ : «... يا بني اني ارى في المنام انـي اذبحك فانظر ماذا ترى ...» . ملأ اذنيه فجأة ازيز طائرتين . ارتمى خلف النبة دون ان يدري . عبرت الطائرتان الجبل ، وهبطتا على الموقع . هم بعض الجنود ان يصفق ظنا منه انهما من نسورهم . اقتربتا فوقهم بما لا يزيد عن عشرين مترا فاتحة نيران «الفيكرز» . تسمروا في مواقعهم من المفاجأة ، ولم ينتبهوا لانفسهم الا بعد فوات لحظات نادرة . اصيب عدد من الجنود . وانفجرت بعض صناديق الذخيرة . وسرت الهمهمات في اكثر من جهة . ونفض البعض التراب عن وجهه وصدره . وتجرأ احد الجنود ، وسأل قائد الفصيلة ، حين خرج من الخيمة مرتديا الأفرول العسكري، دون ان يغلقه :

ـ هل قامت الحرب يافندم ؟

ـ يبدو ذلك !

ـ ولماذا لم نعرف يافندم ؟

ـ الزم موقعك يا عسكري .. وممنوع الضرب الا بأوامر .

ـ ولكن .....!!

ـ عد الى موقعك فورا .. والا ..

ـ حاضر يافندم !

قلب «اسماعيل» سلاحه في يده ، بربت عليه ويلاطفه ، يثبته في مكانه ، ويرفع كفيه الى السماء ، ويتمتم بلا حساب . تعبر خنقه أقدام مشدودة ، ينتبه لوقعها . يستفسر من اصحابها عن اخبار . يعرف ان قائد الفصيلة ، استدعى احد الجنود لمعرفة درجة التردد في اللاسلكي ، ثم عاد لهم بأذنين مرتخيتين ، وجواب غير شاف به آثار تشويش . هبط الشرود بينهم ، ونظر كل منهم في وجه الاخر، وخيل الى «اسماعيل» ان لحظة الصمت والشرود تظلل الموقع كله . تعلقت العيون بالسماء ، ترقب وجهها بقلق مجهول ، ومن بعيد ، لم تنقطع الطائرات المعادية عن الظهور والحركة ، يتبعهما دوي عنيف يصطدم صداه بالجبل ، وترددت صيحات غضب في عدد من الخنادق:

ـ يا خبر اسود ... اين طائراتنا ؟!

تمتم جندي بنبرة اساءة ، ثم علا صوته يخاطب نفسه : اللاسلكي سيتحسن .. واخبار الراديو طيبة على كل حال .!

تململ «اسماعيل» خلف سلاحه . أرهف سمعه لصوت الراديو الترانزستور في خندق مجاور . اجتاحته الرغبة في الحصول عليه. اغرى احد زملائه بتحقيق رغبته . تقدم زميله ، وبخفة خطف الراديو، لاحقته صيحات الاحتجاج، تركها تذوب في صوت اذاعي هادر كمصفحة مقتحمة يقول : .... وبلغ عدد الطائرات التي اسقطت حتى الان ٣٦ طائرة .. الى النصر يا رجال .. هذا يومكم .. هذا موعدكم ...) .

انتفض جسد «اسماعيل» برعشة وخبط سلاحه ملاطفا وهم ان يركع على الرمل مقبلا ذراته . هلل زميله وكبر ، كأنه يعلو مئذنة. التفت اليه كثير من رجال الخنادق . جاوبوه بالتكبير . بكى الجندي تأثرا . ثم لم يملك نفسه أن مال على اسماعيل وعانقه . تبددت من صدر «اسماعيل» ظلال خوف ، وحل محلها احساس هادىء وقور ، ممتزج بنوع غريب من النشوة ، ولم يدر كيف تكررت المرات التي تحسس فيها أجزاء معينة من سلاحه ، كما يتحسس الطفل وجنة امه، وعينيها ، قبل ان يلوذ بصدرها . ظهر «الرقيب» متهللا هو الاخر ، طائرا بين الخنادق ، وهو يعلن ان الفوات المتقدمة نوغلت حتى الان ١٢ كيلو داخل الارض المحتلة .. «وسنتبعهم الليلة .. يا رجال .. بمجرد ان تصل الاوامر» .

ضج الموقع بالتهليل والتكبير في ايقاع واحد ، وتوسط بعضهم خندقه يرقص والسلاح في يده .

(كانت بشرى يتيمة !!)

كرر الراديو اسقاط عدد اخر من طائرات العدو بالمدافع المضادة. التفتوا نحو «الرقيب» يرددون السؤال :

ـ ولكن .. اين طائراتنا ؟

خيم الصمت لحظة ، تسمر «الرقيب» في مكانه امام الحاح السؤال ، ثم وجد نفسه ينسحب مبتعدا .!

التفت جندي نحو جاره ، وهم ان يحرك شفتيه بكلمة غير مفهومة . تمهل برهة ، وتشاغل بلمس صندوق الذخيرة . سأل فجأة عن الساعة . تجاهل جاره النظر الى معصمه ، حملق في فوهة مدفعه ، وقال :

ـ الثالثة .. تقريبا !

ـ اين غداؤنا .. لقد جعنا ؟!

تدخل «اسماعيل» وقال مبتسما :

ـ لا يهم الغداء . سنتعشى هناك !

خبط الجندي ظهر «اسماعيل» ضاحكا . غمرت عدوى الضحك الوجوه العابسة ، وكثرت ملاطفة الاسلحة .

ولكن صوتا جافا قطع ضحكته ، وقال :

ـ طيب .. والماء ؟.. انا عطشان .

المـاء ..!!

سعل «اسماعيل» بخشونة من شرق بحفنة ماء . حدق في العربة باحساس من نخطى المسافة الباقية . اضطره السعال ان يفتح فمه. تسرب اليه صهد محرق لسع حلقه كجمرة نار ، تنفس بنوع غريب من الضيق . وضع راحته على انفه . تبخرت بهواء جاف وحار . مسح عينيه بكمه ، واستطلع المسافة الباقية ، ازاح حصوة وخزت راحته. هل يقدر له ان يرى قطرات الماء تلمع في الضوء ، وتدنو من شفتيه؟! بوسعه ان يستمر شوطا اخر باغراء قطرة واحدة . لا طمع له في سقوط المطر ، ليس هذا موسمه ، ولو نزل خطأ فلن يتصور كيف يروى ثلاثة ايام من العطش . هذا طمع يفرزه بقايا خيال او هفوة حلم . بضع قطرات تكفي لرد الروح ، والقطرة الواحدة تبل ريقه الجاف .. اضعف الايمان . كم عبث بالقطرة .. والقطرات . لم تكن

القطرة الواحدة تحسب ماء في النيل ، فكيف تحسب الان ! انها تعادل كل الانهار . لن يطلب من القطرة ، والقطرتين ، تعويضا عن فقدان الماء والملح المتبخرين من جسده . هذا ترف تنسجه احلام مصنوعة . انه طول عمره فنوع ، فكيف يبالغ في ظرف اختلت فيه مقاييس الامور ؟!. حدق في العربة برهة ، وفي السماء برهتين . همس من جوفه :

ـ يا رب .. قطرة !.

اصطدمت ركبته بحجر ، صرخ صرخة مبحوحة ، غام لون الرمل في عينيه ، خيل اليه ان حواسه تدخل في الغيبوبة ، وانه يغوص في الرمل كحشرة مذعورة ، اسعفه زميله بتدليك صدغيه ، وجبينه. فتح احدى عينيه بمشقة . لم ير سوى الهدوء .. وحيدا ، تقتصبه شمس الظهيرة . جره زميله الى شجرة صبار . ادخل رأسه في ظلها القصير ، وترك جسمه ممددا في الفرن الشمسي . لم ينته الخدر من زيارة حواسه ، والشمس تشقق جلد كتفيه بمشرط متوهج، عليه ان يحتفظ بعدد من حواسه عاملا ، وينافس زميله في السباحة الرملية .! غالب ارتخاء جفونه ، وهو يتوهم ، ان سعة الصحراء عجزت عن ان تمتص صرخته القصيرة . تنهد وزفر صهدا من صدره . احس ان صرخته تسكن اعضاء جسمه وحدها . صب زميله في غطاء الزمزمية اخر قطرة بول يحتفظ بها . لم يتقزز حين رآها عكرة تسبح الديدان فيها ، دلقها في الزمزمية ، ثم وضع اصبعه كمصفاة على عنقها ، صب القطرة خالية من الديدان ، وقربها من شفتي صاحبه . لم يتأفف «اسماعيل» ولم يصب بالقرف من الريم الذي يطوق حلق الزمزمية وغطاءها . وارب شفتيه المشققتين وشرب القطرة . ضمهما في الحال حتى لا ينفذ هواء يونيو الساخن يجرح حلقه او يمتص الرذاذ . القطرة مالحة وملتهبة ، ورائحتها بلا وصف ، ورغم غثيانه لم يفكر ان يلفظها كما حدث من قبل . ابتلت زلطة فابعة في فمه . نصحه زميله في البداية ان يلوك الزلطة كلما شح الماء . غرس اصابعه عميقا في الرمل وبحث في عينيه عن الدموع للبكاء . لم يجد القدرة حتى على البكاء الجاف . احتك ساعده بالمصحف في جيبه . شرد في الفضاء ، تذكر كيف انقطعت تلاوته عند الغارة الاولى ، فلم تعبر كلمة الذبح في رؤيا ابراهيم لولده . لا فدية لمن نخلى عنهم الرب ، والفضاء غير مكترث بهم ، لا بمطر فدية ... ولا مظلة جوية . غمغم بيأس :

ـ يا رب ... هل انت في السماء ... نظرة واحدة ما دمت هناك !

ويغمض عينيه ويفتحهما . ويدير وجهه عن السماء حائرا ، ويهز يد زميله ، وهو يحاول ان يصرخ بصوت واهن مشروخ :

ـ لماذا لم يكن معنا !

ويرفع كفيه يخفي وجهه ، ويهمس خجلا :

ـ وهل كنا مع انفسنا ؟!... لو قدر له ان يعود .. لن يكرر الزيف مع نفسه .. سيعلق على ظهره بطاقة بلاهة ، متصارحا مع عشرات العيون التي تستقبله .

ضرب دماغه بيديه مرات . بوغت برأسه يدور ، تناوشه دقات متقطعة ، هذه الدقات علامة انفجار بلا موعد .

لو انفجر رأسه هنا لن يصاب بالخجل . فهنا ساحة الانفجارات من كل الانواع . وخطر له ان يوصي زميله بتكفينه بالقميص ، وسرح لحظات في المبهم ، ربما في الآخرة ، منتظرا طلوع روحه . لماذا يرغب ان يغطي جسده ؟ اما زال يعرف احساس الخجل ؟ ولا يريد ان يموت عاريا ؟! وانتظر ان يضج المكان بالزحام ، وينضح بالعرق . لم تخرج الضجة بعيدا عن رأسه ، ولم يغمره العرق . لو يبتل بكمية تملأ زمزميتين . سيعرف تماما كم تزن ذنوبه . سيكون الحساب نزيها اذا خلت تقارير الميزان من نفاق او خداع دنيوي !. حلم بأثر عرق فوق شفتيه ، حاول ان يلحسه بلسانه ، وخز الالم شفته المشققة كتربة الشرافي . رفع ذراعا جافة كعود صبار قطع حديثا ، وتحسس شفته .

أحس «اسماعيل» بيد زميله تعود وتدلك جبينه ، ثم تهزه برفق ، وصوته الخافت يغربه بحساب الامتار الاخيرة .

ـ اسماعيل ؟ يا اسماعيل ؟ خذ نفسك . تشجع . وهيا بنا .

ـ يافندم . انفاسي تختنق من الدخان .

ـ لا يوجد دخان يا اسماعيل . انه لهيب الشمس . وعليك ان تتحمل .

ـ يافندم . الدخان كثيف . وهذه النيران . متى تأتي حماية جوية . يافندم ؟

ـ لن يأتي شيء . العدو يطوقنا . وعلينا ان ننسحب .

ـ يا مصيبتنا . ماذا جرى يافندم ؟. كيف ننسحب وأنت تعرف الظروف ؟.

ـ لا اعرف . لا اعرف . ليتصرف كل منكم .. و ...

وابتعد «الرقيب» دون ان يكمل ، وجرى يقفز في عربة جيب مع فائده . وجرى «اسماعيل» مع عدد من زملائه ، يحاول ان يلوذ بالجبل ومنحنياته . ولم يدر كيف وجد نفسه في الجانب الاخر من الجبل ، بعيدا عن هدف النيران ، ولم يبق من اشيائه سوى الزمزمية . ابتعد عن المنطقة ، وابتلعته طرق لا يعرفها ، وفي سكنه عثر على جندي قتيل ، فتش جيوبه بحثا عن اطعمة جافة ، اكل بشهية امام الجثة، وآثار الدموع لم تجف في عينيه ، وسار من جديد ، دون ان يفارق خياله صور رجال يتسافطون عبر الجبل ، واحدا واحدا ، ولمح أمامه زميلا نجا بنفسه من موقع اخر . صاحبه في طريق (الحسنة) دون ان يكترثا طويلا بمن يلتقون بهم شاردين . لفهما الليل مرتين ، وانهكهما الصعود ، والهبوط ، والمسافات لا تتناقص في عيونهما . وليل ثالث يزحف على قمم الجبال . تحسس زميله رأسه ، تباطأت خطواته ، ومال على الرمل متأوها . التفت الى جسده الضامر وأصر على ان يرفعه بعناد ، تراجع ، وسقط على الرمل . حاول «اسماعيل» ان يكون اوفر عنادا ، شد قامته ونحرك . انغرس حذاؤه في الرمل ، وانحنى جسده الى امام ، وفقد توازنه ، وسقط بجوار زميله . انتبه لحال قدميه . متورمتان .. متقيحتان بشيء لزج كالزيت الوسخ . خلع فانلته ، مزقها ولف بها قدميه ، وضمد جرحا ملوثا بذراع زميله . نمدد على جنبه يرقب معه سلسلة الجبال المتقاطعة في لحظة الغروب . اهتزت المنطقة فجأة بانفجارات متتالية ، تصاعد دخان كثيف لون الفضاء بلون رمادي داكن . قرر زميله الابتعاد عن المنطقة في الحال ، لكنهما عجزا عن السير طويلا ، فاحتميا خلف صخرة مجوفة . وتطلع زميله جهة الانفجارات بعين فلقة ، يلعب بخياله صورة ما يحدث هناك . ارتجفت أطرافه ، وانفجر باكيا . يلعن كل شيء ، ويهز كتف «اسماعيل» مقهورا ويقول :

ـ ماذا حدث يا اسماعيل ؟ هل تعرف . اننا نموت مجانا .. مرتين . مرة من البلاهة ، ومرة من العطش . كيف نسقط كالجرذان بلا مقابل ؟ هل تعرف ..؟!!

لمس «اسماعيل» زمزميته الفارغة ، وأجاب ببرود لا يعرفه عن نفسه ، كأنما ينوب عن شخص اخر :

ـ اطمئن .. بعد ان نموت . سيختفي الهوان . ولن نشكو العطش . هذا ما اعرفه . فهل تعرف انت سببا لبكائك ؟!

حدق في وجه «اسماعيل» بدهشة ، تشابكت العيون ، ثم تباعدت فجأة تداري خجلها ، حرك زميله شفتيه ، وأذاب ملحا مجمدا

عالقا بلسانه :

ـ بعد ان نموت ؟ هل ستختفي المرارة ..؟ اخشى ان تلاحقنا.. هناك ؟ اما الهوان .. فمن بدري .. ربما سبقنا مبكرا يلـــوث حضورنـا .!!

ـ ارجوك .. علينا الا نشغل فكرنا بغير الماء ، وبعدها قل ما تشـاء !

فك كل منهما أزرار بنطلونه ، وتبول في زمزميته ، ووضع فيها قطعا من (الفولية المعسلة) ، حتى يصبح البول باردا مستساغا فـي الشرب . وتمدد «اسماعيل» على الرمل ، بتوسد ذراعه . حدق في السماء قبل ان يغيب في النوم . خيل اليه ان النجوم ممتقعة . عدل عن النظر اليها ، وتشابكت كفاه دون ان يدري . حاول ان يخلصهما، لكن وجها رقيقا يمسكهما ، ويرجوه ان يعدل عن النزول في الماء . يفلت من حصار الوجه ويهرع الى الماء . تصرخ فيه خطيبته ، وهو يعبث بالماء منتشيا بعذوبته . تجره الى منضدة قريبة . تفتح لـه زجاجة مثلجة . تسقط بضع قطرات على حافة المنضدة . يقبـل الجرسون بالفوطة . يصيح فيه بالابتعاد . لن يسمح للفوطة ان تمتص هذا الشهد المراق . يميل برأسه ، ويلحس سطح المنضدة ، بشغف مبالغ فيه . تعبس خطيبته حين يتمادى في غيه ، تشده مقطبة ، تصطدم ذراعه بحافة ملساء ، يفيق من نومه على يد زميله ، تهـزه بقوة ، وتدعوه ان يرفع لسانه عن سطح الزمزمية .

ـ «اسماعيل» ؟ يا اسماعيل ؟ ما دمت تتنفس ، فلا خوف الان من لهيب الشمس . تشجع . وهيا بنا الى العربة . واضح انهـا عمرانة ، لم تمتد اليها يد النهب بعد . قم معي .. لن نضيع هـذه الفرصة ..

لم يجدا في كبينتها ، وعلى ظهرها سوى (جراكن) بنزين مليانة ، ومخالي جنود مكدسة بمهمات عسكرية ، وقنابل يدوية. الماء ؟ تحسس زميله «الادرياتير» فهو لا يخلو من ماء . فتشا عن خرطوم لشفط الماء. انغرست فيه اسنان «اسماعيل» . دميت شفتاه قبل ان ينتهي مـن قطعه . قضم زميله الخرطوم ، لم يعبأ بجرح لثته ، ولم يتخل عنه حتى انقطع . دسه داخل «الادرياتير» . شفط الماء ، سال في فمـه بعذوبة العسل . صرخ من الفرحة . هب «اسماعيل» مرتعشا يلقـم طرف الخرطوم كرضيع يتيم . اسكرته القطرات رغم ان الماء ملوث بالصدأ . لم يهتم الا بان ما يشفطه نوع من الماء ، يفوق في عذوبتـه شفتي خطيبته . تناوبا الشرب حتى نفد الماء ، انتقل مع زميله الى (تنك) الهواء . سقط منه سرسوب من الماء المخلوط بالزيت الاسود. شرب كل منهما ثلاثة غطيان ، ثم اضطرا الى التوقف فجأة . ظهرت عربة مدرعة ، هرع زميله الى المهمات العسكرية ، وخطف قنبلتيـن يدويتين ، وقذفهما لـ «اسماعيل» وهو يصرخ فيه بالابتعاد الـى حفرة قريبة . لم يلتقط «اسماعيل» سوى قنبلة واحدة . لم يتركه زميله يضيع ثانية واحدة في التردد . طرحه بعيدا في نفس اللحظة التي اتجهت فيها قذيفة المدرعة الى قلب العربة تنسفها مع زميله .

سابق «اسماعيل» الريح عائدا الى التل . اندلعت النيران في العربة والبنزين . لاحقته المدرعة ، سقطت قذيفة بقربه ، ارتمى على الارض برعبة ، ثم انطلق تحركه طاقة فزع غريبة ، انحرف في احـد منحنيات التل . انكفأ في منخفض . انطمس وجهه في الرمل . غشيت عينيه سحابة رملية . لم يحفل بما اذا كان بصره كف ام لا . تنقل خلف كتلة رملية كأنها تباب ، لا فائدة من الجري والهرب . توقف مرة واحدة . اختبأ خلف كتلة صخرية ، جرف بيديه الرمل ليقيم حفرة في ثوان . صدره يلهث كموتور عربة عتيقة . لا يعرف ان كان صدره انشق . لم يبق بينه وبين المدرعة سوى ١٥٠ مترا . مدد جسده فى الحفرة المسطحة ، أهال عليه الرمل ، ردم منه مساحة كبيرة . دفـن وجهه في كومة رمل ملتصقة بالصخرة . لف دماغه بيديه . صمت تماما مستغلا تقطع انفاسه ، مموها ليبدو كجزء من الصخرة . انتظر الموت وحيدا . انه يقترب ، سيعانقه مجبرا ، تأجل الموت من العطش، ليفسح المجال للموت الاخر ، وكله بلا ثمن كما ادرك زميله ، ولـن تفديه السماء البعيدة .!

صوت المدرعة يخرق اذنيه ، يتجول في رأسه ، تذكر القنبلـة اليدوية ، واحدة لا تكفي ، ستفضحه وتحدد مكانه . حرك شفتيه بالشهادتين . تجمدتا . نطق بهما في سره . انقطعت القذائف ، لكن المدرعة مستمرة في اتجاهه . ثوان ويصبح في عداد الموتى ، وتبقـى جثته وحيدة عارية في الريح والصحراء . حفت المدرعة بالصخرة. وقفت برهة كأنها عام . انهمر رصاص جنودها يرش كل شبر حوله . صمت تمامـا كأحد الموتى. غرق المكان في ضجيج موتور المدرعة . لـم يعـد يدري هل تقدمت المدرعة ام ما زالت واقفة ! لعلها داست دماغه فتفتت كحبات الرمـال ، لا بد ان ذلك حدث ، فقد غابت صلته بدماغه، واصبح الان بغيـر رأس ، ولا ريب ان جسمه ممزق كالفطيرة . ومع ذلك ظلت آلامه حية في نواح من جسمه ، واستحال عليه ان يفهـم وسط هذه الفشاوة ، وبقي على حاله زمنـا طويـلا ممخدرا جامدا ، الى ان تجمع وخز قاس بأعلى فخذيه . هو تشقق الجلد دون ريب ، خيل اليه انه يريـد ان يتبول . لا فسحة لديه ،كيف يكون في وسعه ان يمارس حاجته وهو ميت ! احس تحته برقعة رمل رطبة ، ومع ذلك لم يهمد الالـم الا ثواني ، فأيـن يتنقل الان ؟! وارهف السمع محاذرا، لكنه يتورط فجأة ويسعل ، ويخفق جفناه المغلقتان بلا توقع ، فيتوهم شيئا كالضوء يخفت ويتلاشى ، وود ان يكرر سعاله ، ويلفظ ذرات الرمل من فمه ، كتمسعـاله في صدره غير واثق من شيء . ضاق ذرعا بحاله وزحفت دقات عنيفـة في مؤخرة راسه ، وخطر له ان يتنفس ،ويتصنع اليقظـة . لا صدى الا للصمت ، والظلام ممزوج باصداء ريح خفيفة. نفض ذراعه تحت الرمل ، خرجت اطراف اصابعه ، لمستها ريح رقيقة. اشار على نفسه ان يجرب تحريك راسه ، ويحسم ما تبادر الى ذهنـه من ازمـة ثقـة في موته . طاوع عقله اخيرا ، وحينئذ تحسس راسـه مشدوها . كيف يكون هذا راس حي ميت !!

ـ هل انسحبت المدرعة ؟ غير معقول ..! قد تكون خدعة ؟!

وتصلب ثانية ، لكنه لم يقاوم السكـون غير لحظات، وانهمكت عيناه في استطلاع كل شبر على مدى بصره رغم ستار الليل ، ثم وجد مكـان الصخرة مستويا ، وآثار جنزير المدرعة لا يبعد عن موضع رأسه سوى ثلاث بوصات ، واختلج جسده ، وباغتته رغبة حادة في بكاء .. غير جاف هـذه المـرة .!

(القاهرة) **محمود حسن العزب**

مجموعـات البياتـي

صدر عن دار الآداب المجموعات التالية

للشاعر عبد الوهاب البياتي :

	ق. ل.
سفر الفقر والثورة	٢٥٠
الذي يأتي ولا يأتي	٢٠٠
اباريق مهشمة	٢٠٠
الموت فـي الحياة	٢٥٠
كلمـات لا تموت	٢٠٠
الكتابة على الطين	٢٠٠
النـار والكلمات	٢٠٠